الفلاح والباشا

تحدث الباشا كثيرًا حول تجنيد الفلاحين المصريين في الجيش المصري، بعد فشل تجربة تجنيد السودانيين بسبب وفاة معظمهم من الأمراض، ربما لتغيير الجو الذي اعتادوا عليه، واختلاف أحوال المعيشة، وأعرب لاظ عن مخاوفه من هذه الخطوة قائلًا للباشا:

- أخشى ما أخشاه يا أفندينا أن يحمل المصري السلاح فيوجهه نحونا.

- لا تقلق يا لاظ، فلن يكون هناك ضباط من المصريين، فهم مجرد أنفار فقط يتحركون بأوامر قادتهم، وسوف يقوم سليمان باشا الفرنسي بإعداد الضباط، وقد بدأ العمل بالفعل بعد أن قدمت إليه خمسمائة من خاصة مماليكي، وطلبت من بعض رجالي أن يحذوا حذوي، ويقدموا من عندهم من المماليك، فاجتمع لديه ألف من هؤلاء وأولئك، وسيدربهم لمدة ثلاث سنوات على فنون الحرب وأساليبها الحديثة، ليصبحوا نواة الجيش النظامي الجديد.

كان الباشا يريد إنشاء دولة حديثة قوية، ووضع خطة طموحة لإقامة العديد من المشروعات الكبرى، مثل شق الترع والمصارف وبناء السدود والقناطر، ولكنه لم يبذل أدنى اهتمام للإنسان المصري الذي يقوم بتنفيذ هذه المشروعات، فكان يستخدم الكرباج في إجبار المصريين على العمل في ظروف بالغة القسوة، كان الآلاف يهلكون جوعًا وضنكًا وإعياء،

فما قيمة المشروعات إذا أهدرت آدمية المواطن. ولقد كان الأسلوب الذي تم اتباعه في تجنيد المصريين يتسم بالوحشية، فقد كانت قواته الكاسرة تهبط على القرية كالإعصار المدمر، فتأسر كل من يقع في يديها من رجال وشيوخ ونساء وأطفال، ثم تسوقهم جميعًا في حبال غليظة إلى مراكز التجنيد قسرًا. وكان محمد علي في حاجة إلى المال، فلم يترك سبيلًا من سبل التحايل إلا سلكه، حتى جعل من نفسه شريكًا لكل صاحب حرفة مهما كانت دناءتها، وتلفت المصريون فوجدوا أنفسهم في غاية الضيق والفاقة.

وكم كانت خيبة أمل المصريين عنيفة وهم يرون أحلامهم في العدل تتبدد! فالحاكم الجديد لم يكن سوى نسخة معدلة من الطغاة السابقين، يسلك مسلكهم نفسه في البطش، بل يفوقهم في سعة الحيلة والدهاء والخبث. وشيئًا فشيئًا، أصبح هو المالك الوحيد لكل مقدرات مصر، بدءًا من رقاب البشر وانتهاء بالدراهم الشحيحة التي تدخل جيوبهم بعد شقاء النهار الطويل، واكتشف الفلاحون أنهم لم يتحرروا من ذل العبودية القديم، وأن نتاج كدهم وتعبهم هو حق مسلوب لحساب الباشا، فهربوا وتركوا الأرض وهاجروا إلى المدن ليعملوا في المهن الحقيرة، فلما تعقبهم كرباج الحكومة زحفوا إلى الشام في هجرة جماعية، كانت سببًا في حملة عسكرية شنها الباشا على الشام لتعود بالفلاحين الهاربين.